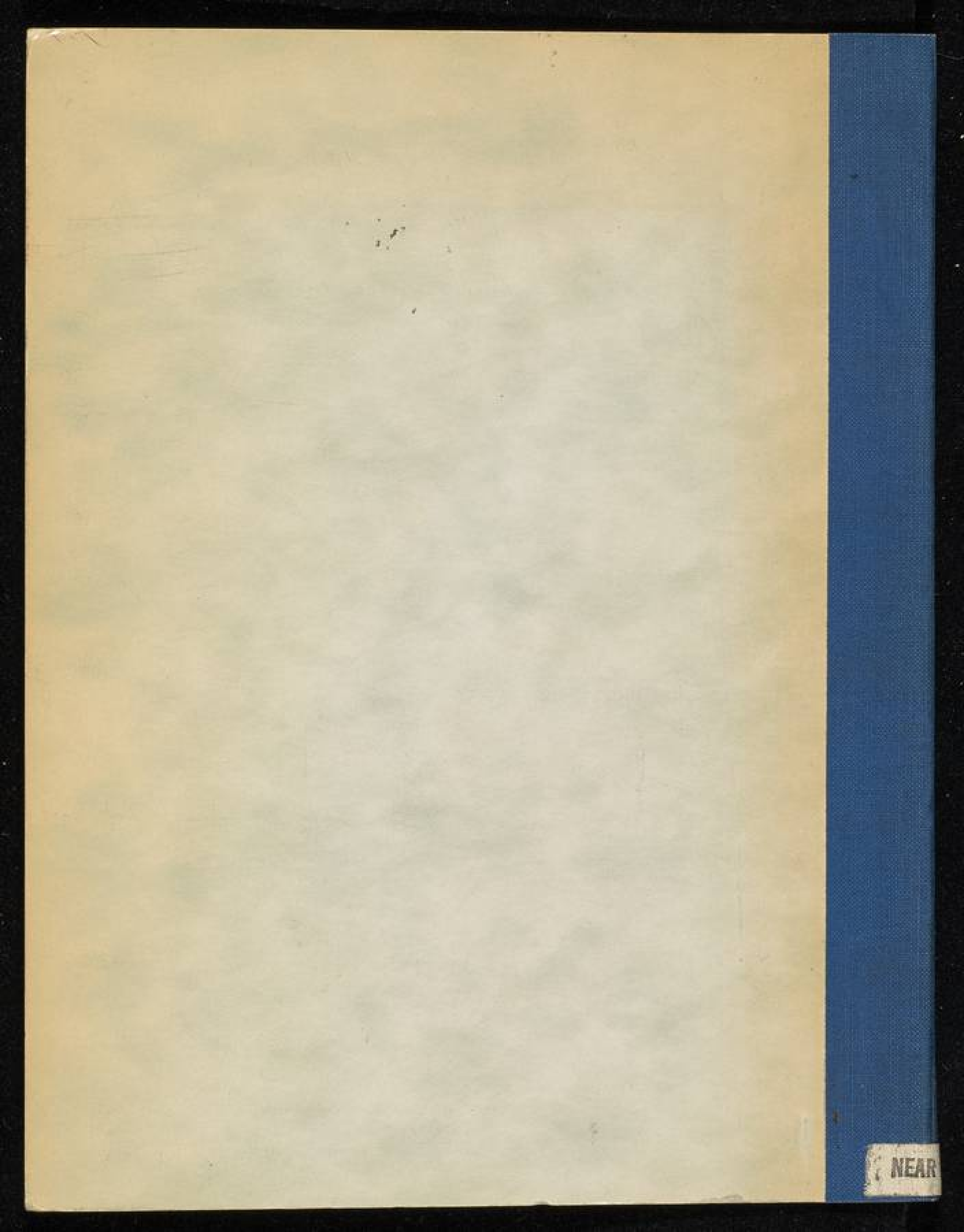
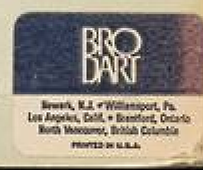

NEAR


BOBST LIBRARY
3 1142 02885 9406

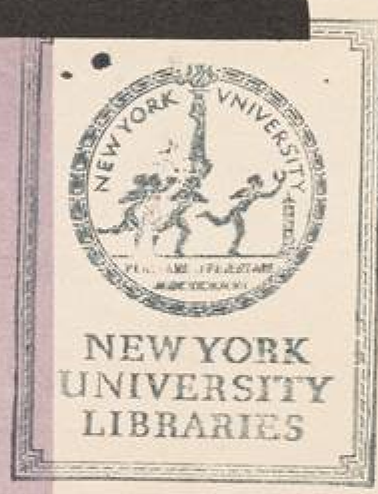

NEW YORK


BRO DART

السلسلة الثقافية

٤

دار السلام في حياة أبي العلاء



الدكتورة عائشة عبد الرحمن

" بنت الشاطئ "

١٩٦٤
بغداد

تصدرها وزارة الثقافة والارشاد في الجمهورية العراقية

● من اجل ان تورق شجرة المعرفة في بلادنا وتزدهر
● ولكيما تشاع الثقافة الاصيلة الهادفة

تصدر وزارة الثقافة والارشاد

كتبها الثقافية هذه لتعنى :

● بالتراث العربي الاسلامي الاصيل
● الفكر الخير والادب الانساني الهادف

فاقرأ فيها :

الحرف الجواد والكلمة الصالحة

وتزود :

بالثقافة الهادية والتراث الرفيع

السلسلة الثقافية
٤

Bint al-Shaṭi',
Dār al-Salām fī ḥayāt al-'Alā'

دار السلام في حياة أبي العلاء

بقلم

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

بنت الشاطئ

استاذة كرسي اللغة العربية وآدابها
بجامعة عين شمس

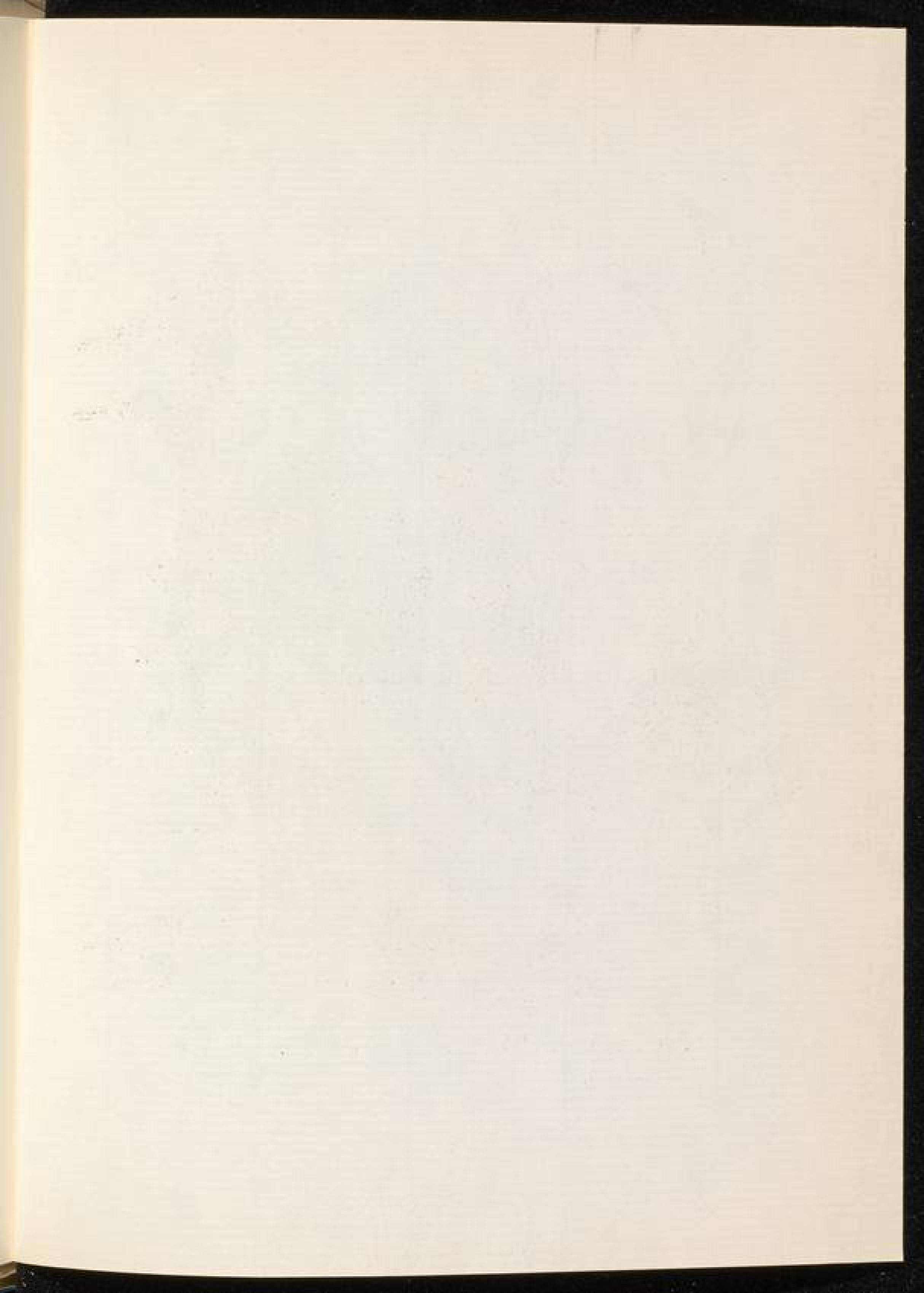
وزارة الارشاد

بغداد
١٩٦٤



شربنا ماء دجلة خير ماء   وزرنا اشرف الشجر النخيلا

أبو العلاء المعري



أنا وبغداد

حللت بغداد مرة وأنا مشوقةالى أنأعيش مرةأخرى ،ولو لبضعة أيام، في بغداد ، التى لا تفتأ أرواحنا ، نحن المتخصصين في دراسة العربية والاسلام ، تهوى اليها وتتعلق بها ، بل اننا لنعيش فيها بوجداننا وعقولنا ، مرتبطين بها الرباط الوثيق الذى لاينبت ولا ينفصل ، لطول ما عرفها تاريخنا، العاصمة الفكرية والادبية الكبرى ، للعربية والاسلام .

أنا اليوم أستعيد ذكرى بعيدة ، من ذكريات صباى المبكر ، عاشت مطوية في أعماق ذاتي ، حتى اتجهت الى التخصص في درس أبى العلاء المعرى ، فانبعثت هذه الذكرى ملء الحياة ، لميأت عليها كر الغداة ومر العشى ...

ذلك يوم فيه عرفت بغداد ، وخفق لها قلبى ، لأول مرة .

ولم تكن معرفتي الأولى بها في درس أدبي أو ما هو قريب منه ، بل لم يكن لي عهد بما يتعلم الطلاب في المدارس ، وانما كنت أتلقى ، فيما أتلقى بالبيت على والدى وزملائه من علماء الازهر ، دروسا في تاريخ الفقه • وجاء أبى ذات مساء بكتاب طبقات الشافعية الكبرى ، لشيخ الاسلام ، تاج الدين السبكى لكي أقرأه عليه • فمضيت أقرأه وأنا أركز كل ذهني فيما قدم به السبكى لطبقاته ، من كلام عن الرواية والدراية ، ورفض الامام الشافعي لمرسلات السبكى ، والنهى عن النظر في كتاب « الملل والنحل لابن حزم » وفضل قريش ، ونسب الامام الشافعي ، وفي كل هذا لم يثرنى شىء مما أقرأ ، اذ كان كله مما أستجيب له فكرا ومزاجا ، بحكم نشأتي وتربيتى •••

وحتى حين انتقل شيخ الاسلام السبكى يتحدث عن الشعر والأحاديث الواردة في مدحه وفي ذمه ، وينقل بعض ما أنشد بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم من الأشعار والأراجيز ، ويشرح « بانت سعاد » لم أنفعل بهذا كله انفعالا خاصا ، فما هو ببعيد عما كان يتردد في بيتي من أصداء •

غير أنى لم أكد أصل الى قصيدة « ابن زريق الكاتب البغدادى » فأتلوها ، ثم أتلو على أثرها القصة المثيرة التى نقلها السبكى للقصيدة وصاحبها ، حتى أحسست رجفة في قلبى ، لم أستطع معها المضي في الدرس ، فلذت بخلوتي ومعى الكتاب ، أعيد قراءة القصيدة وأنا لا أملك دمعى ، وأعذر ذلك الشيخ الأندلسي الذى سمعها أثر العثور عليها عند رأس ابن زريق فوق فراش موته ، فبكى حتى خضب لحيته •

ولم أنم ليلتها ، بل بت مؤرقة أصغى الى رجع الصدى في قلبى ، وأتمثل

بكل مشاعرى ذلك البغدادى الغريب ، نزح عن الأهل والدار ، واجتاز البرارى والقفار الى الأندلس ، حيث أضناه الحنين الى بغداد ، واشتدت عليه وطأة الغربة ، حتى قضت عليه وحيدا الا من الرؤى والأطياف ، والتمسه معارفه بالأندلس ، بعد أن رابتهم غيبته أيام ، فاذا هو ميت في الخان الذى كان ينزل فيه ، وعند رأسه رقعة مكتوب فيها : موضع منزله ببغداد وأهله بها ، مع هذه المناجاة الضارعة المثيرة :

لا تعذليه فان العذل يولعه ... قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

جاوزت في عذله حدا اضر به ... من حيث قدرت أن اللوم ينفعه

فاستعمل الرفق في تانيبه بدلا ... من عنفه ، فهو مضنى القلب موجعه

. . . .

أستودع الله في بغداد لى قمرا ... بالكرخ من فلك الازرار مطلعه

ودعته وبودى لو يودعني ... صفو الحياة وانى لا أودعه

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وادمعي مستهلات وأدمعه

لا أكذب الله ثوب العذر منخرق ... عني بفرقته ، لكن أرقعه

أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته ... كذاك من لايسوس الملك يخلعه

ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا ... شكر عليه ، فعنه الله ينزعه

اعتضت عن وجه خلّي بعد فرقته ... كاسا تجرع منها ما أجرعه

كم قائل لي : ذقت البين ؟ قلت له ... الذنب ذنبي وانى لست أدفعه

اني لأقطع أيامي وأنفذها ... بحسرة منه في قلبي تقطعه

بمن اذا هجع النوام أبتُ له ... بلوعة منه في قلبي تلوعه

لا يطمئن بجنبي مضجع وكـذا — لا يطمئن به مذ بنت مضجعه

ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعني — به ولا أن بي الايام تفجعه

حتى جرى البين فيما بيننا بيد — عسراء تمنعني حظي وتمنعه

بالله يا منزل القصر الذى درست — آثاره وعفت مذ بنت أربعه

هل الزمان معيد فيك لـذتنا — أم الليالى التى أمضته ترجعه

في ذمة الله من أصبحت منـزله — وجاد غيث على مغنـاك يمرعـه

من عنده لى عهد صدق لا يضيعه — كما له عهد صدق لا أضيعه

ومن يُصَدِّعُ قلبـي ذكره واذا — جرى على قلبه ذكري يصدعه

عسى الليالى التي اضنت بفرقتنا — جسمي ، تجمعني يوما وتجمعه

وان تنل أحـدا منا منيتـه — فما الذى بقضاء الله نصنعه

تلك كانت المرة الأولى التى عرفت فيها بغداد ، واقترنت صورتها في وجدانى ، بصورة ذلك النازح المغترب الذى راح شهيد حبها ، وصريع الحنين اليها .

يومها لم أكن ذقت شجن الغربة أو كانت محنة الفراق للدار والاحباب، لكني أحسست مرارة الشجو ولوعة الاغتراب، مع شهيد الغربة ، الذي ترك بغداد فما انتفع بحياته من بعدها أبدا .

*

ثم في الجامعة ، عرفت أبا العلاء ، فعرفت شهيدا آخر من شهداء بغداد ، أحبها وآثر المقام فيها ، فلما عز عليه أن يقيم بحيث اختار ، قضى على نفسه

بما يشبه الموت ، وفرض عليها قرارا صارما ، بالعزلة عن الدنيا والحرمان من كل متع الحياة .

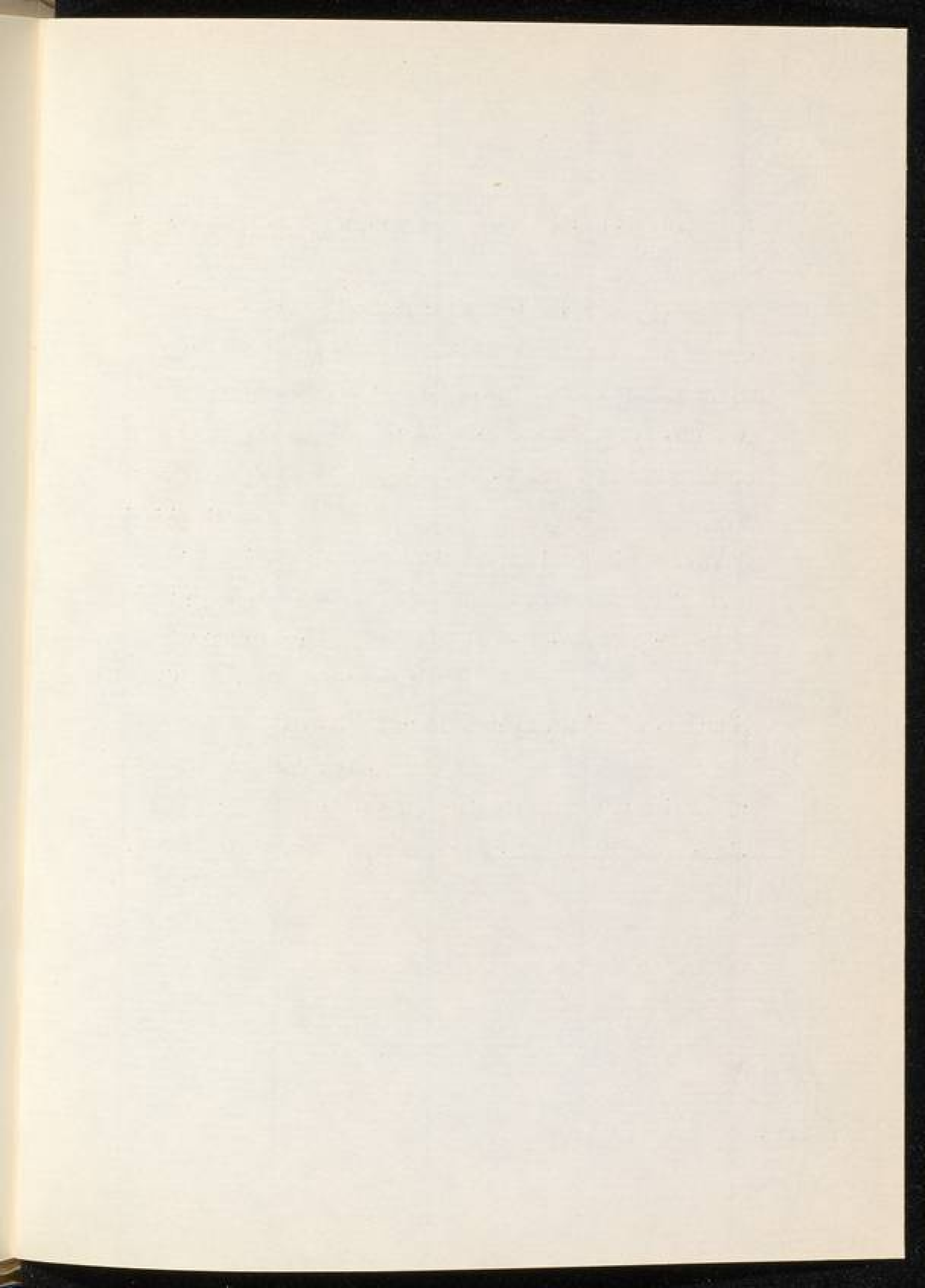
أجل عرفت في أبي العلاء شهيدا آخر ، على صورة أخرى .

وقد بدأت أحبه ، وأتجه الى التخصص في دراسته ، منذ قرأت لـــه رسالة الغفران والفصول والغايات ، أول عهدى بالجامعة . واحتجت لفهمهما أن أعرف الظروف التى أملى فيها هذين الاثرين الخالدين من روائعه ، فلم ألم منها الا بالشائع المعروف ، من أنه أملاهما في طور عزلته ، الذى بدأ يوم خرج من بغداد .

فكرة عامة ، لم تسمح لي ظروف الدراسة في المرحلة الجامعية الأولى بأكثر منها ، غير أني لم أكد أنهى هذه المرحلة ، وأفرغ لصحبة أبى العلاء فأزداد منه قربا وله فهما ، حتى أدركت أن فراقه لبغداد ، هو الحادث الأكبر في حياته وفنه .

وطالت الصحبة ، وهـــذا الملحظ يزداد وضوحا أمامى ، واحتكاما في توجيه فهمى لأبى العلاء ، وفقهى لتراثه الفنى .

وكم تمنيت ان تتاح لي الفرصة لتناول هذا الحادث الحاسم في حيـــاة ادبنا الاكبر الى أن سنحت لي ، فانتهزتها ، وكانت حصيلة تلك ، هـــذه الدراســـة .



حياة الأديب

في حياة كل أديب ، وأكاد أقول كل انسان ، حادث حاسم ، يغير مجرى هذه الحياة ويتحكم في توجيه مصيرها .

ومن قديم ، سمعنا امرأ القيس يقول حين بلغه مصرع أبيه وهو في مجلس شرابه : اليوم خمر وغدا أمر .

أما أبو العلاء ، فليس في حياته خمر ولا ثأر ، وانما الذى فيها رحلة الى بغداد ، كانت بصريح عبارته ، وبأقوال مؤرخيه ، الحد الفاصل بين شطرين من حياته ، انسانا وأديبا ، شطرين مختلفين ، شتان ما بينهما .

والاخباريون — على كثرة من عني منهم بالترجمة لابى العلاء وعلى كثرة ما جاؤا به من اخباره ونقلوا من أقواله — لم يعنوا بهذا الحادث الخطير في حياة أديبنا الأكبر ، بل أن منهم من لم يشر اليها اطلاقا ، كأبى منصـــور

الثعالبى في « تتمة اليتيمة » والباخرزي في « الدمية » وكلاهما من معاصريه ، والسمعانى في « الانساب » وابن الجوزي في « المنتظم » وقد عاشا في القرن السادس ، قريبا من عصره وكذلك أهملها ابن الأثير (٦٣٠هـ) في « الكامل » وابن تغرى بردى (٨٧٤هـ) في النجوم الزاهرة •

أما الذين أشاروا اليها ، فبعضهم جاء بها خبرا عابرا في الترجمة لحياته، واقدمهم معاصره الخطيب البغدادى (٤٦٣هـ) الذى كان كل ما قاله عنها في تاريخ بغداد : « عمى في صباه » وعاد من بغداد الى بلده معرة النعمان ، وأقام بها الى حين وفاته « واشار اليها » سبط بن الجوزي (٦٥٤هـ) في سطرين من « مرآة الزمان » ومثله ابن خلكان (٦٨١هـ) في « الوفيات » وأبو الفدا (٧٣٢هـ) في « المختصر » وابن حجر (٨٥٢هـ) في « لسان الميزان » •

وأورد آخرون بعض أخبار عنها ، لا من حيث دلالتها على خطر الرحلة ، ولكن من حيث شهادتها لأبى العلاء بالذكاء العجيب والحفظ النادر •

من هؤلاء ، ابن الأنبارى (٥٧٧هـ) في « نزهة الألبا » والقفطى (٦٤٦هـ) في « الانباه » وياقوت الحموى (٦٢٦هـ) في « ارشاد الأريب » وابن فضل الله العمرى (٧٤٩هـ) في « مسالك الابصار » وقد جمع ابن العديم الحلبى (٦٦٠هـ) ما تفرق من أخبار الرحلة ، في الفصل الذى عقده في « كتاب الانصاف والتحري » بعنوان : « فصل في ذكر رحلته الى بغداد ، وعوده الى معرة النعمان ، وانقطاعه في منزله عن الناس وتسمية نفسه : رهين المحبسين، رحمه الله » •

وقلة من متأخريهم ـ كابن كثير (٧٧٤هـ) في « البداية والنهاية »

والبدر العينى (٨٥٥ هـ) فى عقد الجمان ـ لم يعنهم من أمر الرحلة الا أن فقهاء تعرضوا لقوله :

تناقض ما لنا الا السكوت له وان نعوذ بمولانا من النار
يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار ؟!

« ولما عزموا على أخذه بها ، خرج من بغداد طريدا منهزما ، ورجع الى بلده ولزم منزله ، فكان لا يخرج منه » .

على أنهم أجمعوا ، على أن عزلته الصارمة ، بدأت برجوعه من بغداد الى معرة النعمان . لا أذكر أحدا ممن أشاروا الى الرحلة ،على أى وجه ، قد خالف في ذلك .

ومن هذا الاجماع ، الذى يؤيده أبو العلاء بصريح أقواله ، كانت بداية الشعاع الذى ظللت أتتبعه وأنا أدرس حياة أبى العلاء في شطريها وأطيل التأمل في آثاره ، فيزداد الشعاع ضياء ، على طول التتبع والتأمل ، والالف والصحبة ، بحيث لا أتردد فى أن أقول : انه كان الدليل الهادى ، ـ لفهم نفسية أبى العلاء ، وفقه ما درست من آثاره .

وقد ذكروا أن ديوانه ، « سقط الزند » قرىء عليه ببغداد ، قاله القفطى في « الانباه » ، والذهبى في « تاريخ الاسلام » وابن حجر في « لسان الميزان » كما أورده ياقوت ، في ثبت مؤلفاته ، وقال : كتاب لطيف، فيه شعر قيل في الدهر الأول ، يعرف بكتاب سقط الزند ، وأبياته ثلاثة آلاف بيت .

فاذا أخذنا سقط الزند ، أثرا فنيا معبرا عن ذاته في الشطر الاول من حياته ، بدا لنا منه شخص آخر غير الذى عرفناه في الفصول والغايات ،وفي رسالة الغفران ، وفي روائع آثاره الاخرى التى ثبت أنه أملاها وهو رهن محبسيه • ومن مقابلة النصوص ، نستطيع أن نستبين أثر الرحلة البغدادية التى أحدثت التحول الحاسم في حياته وفنه •

وبقدر ما لها من أثر خطير ، نلتفت اليها ، ونحاول قدر ما استطعنا أن نعرف كل ما حف بها من ظروف ، وان نستخلص دلالة كل خبر مروي عنها ، ثم نلوذ آخر الأمر بأبى العلاء نفسه ، نسأله ان يفسر لنا بلسانه الصادق سر هذه الرحلة ، وان يقول كلمة الحق فيما ذكره مؤرخوه عنها وما أهملوه •

أبو العلاء في بغداد

متى سافر الى بغداد ؟

ولماذا ألقى بنفسه ـ وهو الضرير المستطيع بغيره ـ في خضمها المائج؟

وكيف كانت حالته النفسية حين شد رحاله اليها ؟

وماذا لقي فيها من صدمة زلزلت عالمه النفسي واتجهت به الى اصدار هذا القرار الصارم على نفسه بالعزلة والحرمان .

وكيف كان خروجه منها ، وأمره في محبسه بداره في معرة النعمان ؟

أما متى سافر ، فليس يعنينا في الواقع أن نحدد بالضبط تاريخ سفره: هل كان سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، كما ذكر معاصره « ابن الجوزى » في « المنتظم » والقفطى فى « الأنباه » وسبط ابن الجوزى في « مرآة الزمان » وأبو الفداء في « المختصر » والذهبي في « تاريخ الاسلام »

أو كان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، كما ذكر معاصره الآخر ابن الانبارى في « نزهة الألبا » ، وياقوت الحموى في « ارشـاد الاريب » ، وابن خلكان في « وفيات الاعيان » ، والصفدى في « الوافى بالوفيات » ، وفي « نكت الهميان » وابن كثير في « البداية والنهاية » ، وابن حجر في « لسان الميزان » .

فبأى القولين أخذنا ، يكون قد سافر الى بغداد ناضج الشباب ، فتيّ الرجولة ، لم يتجاوز عامه السادس والثلاثين ، على أقصى الاجلين .

ولم سافر ؟

لم يقل الاخباريون الا أنه أوذي في وقف له ، فرحل الى بغدادمتظلما من أمير حلب ذكر ذلك القفطى في « الانباه » ، والذهبي في « تاريخ الاسلام » ولكن أبا العلاء ، يشير الى أن رحلته ربما حملت على طلب الثراء ، أو الاستكثار من النشب ، فيقول في رسالته التى كتبها الى أهل المعرة ، عند خروجه من بغداد :

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب » ، ويؤكد ان البغـداديين عرضوا عليه أموالهم عرض الجد ، فأبى وتعفف :

« والله ... يحسن جزاء البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق .. وعرضوا علي أموالهم عرض الجد فصادفوني غير جذل بالصفات ولا هش الى معروف الأقوام » .

وكذلك أملى في رسالته الى خاله ابى القاسم على بن سبيكة عند طلوعه من العراق ، يذكر محاولة البغداديين لقضاء حاجاته المادية ، حرصا عـلى استبقائه بينهم :

« وكلما عرضوا قضاء حاجة أعرضت عن تكليف المشقة، لاني أعتقد حكمة زهير في قوله :

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه
ولا يعفها يوما من الذل يسأم

« .. وأمروني لرغبتهم في صقبي منهم ، بأمور تنهى عنها القناعة ، وتكف دونها العادة .

على حين ان ذكيت وابيض مفرقي
أسام الذى أعييت اذ أنا أمرد ؟

*

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

« والله يحسن جزاءهم : ان كان ما فعلوه حفاظا فهو منة عظيمة ، وان كان نفاقا فهو عشرة جميلة ، وانصرفت وماء وجهي في سقاء غير سرب ، ما أرقت منه قطرة في طلب أدب ولا مال » .

وابو العلاء عندنا المصدق ، وعباراته تشهد بانه لم يكن يتكلف رفض العطاء والمنة تجملا ، وانما هى عادة فيه وطبيعة ، واستصغار لشأن المال .

فلعله اذن سافر يستزيد من طلب العلم ، ويستكثر من عدد شيوخه على عادة رجال عصره ؟

ربما خطر ذلك بالبال ، لكن أبا العلاء ينفيه نفيا قاطعا في رسالتيه اللتين أملاهما عند منصرفه من العراق ، فقال في أولاهما لخاله أبى القاسم .

« ومنذ فارقت العشرين من العمر ، ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراق ولا شآم » .

وقال في الاخرى ، لاهل معرة النعمان :

« وأحلف ما سافرت استكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال ».

فيم اذن كان السفر ؟

أبو العلاء يصرح في رسالته الى خاله ، بأن الذى أقدمه الى تلك البلاد « مكان دار الكتب بها » كما يصرح في رسالته الى أهل بلده ، انه انما آثر « الاقامة بدار العلم » .

وليس قوله عندنا بمتهم ، وهم يذكرون في تاريخه انه لما وصل الى بغداد ، طلب ان تعرض عليه الكتب التى في خزائنها .

لكن من حقنا أن نسأل اذا كانت هذه هى الغاية من الرحلة ، ففيم كان ذلك التحول الخطير في حياته بانصرافه من بغداد ، وقد حقق غايته من السفر اليها ، وعرضوا عليه كل ما في خزائنها من كتب ؟ واذا صح ما ذكره ابن فضل العمري في « المسالك » من أنه لما أجيب الى طلبه « جعل لا يقرأ عليه كتاب الا حفظ جميع ما يقرأ عليه » أو ما ذكره القفطى في « الانباه » من أنه « حضر خزانة الكتب التى بيد عبد السلام البصري ـ المعروف بالواجكا ـ وعرض عليه أسماءها ، فلم يستغرب شيئا لم يره بدور العلم بطرابلس ، سوى ديوان تيم اللات ، فاستعاره ، وخرج من بغداد وقد سها عن اعادته ، ولم يذكره حتى صار بالمعرة ، فأعاده اليه » .

أقول اذا صحت هذه الاخبار ـ وليس ما يدعو الى الشك فى صحتها ـ

فان الرحلة اذن تكون قد حققت غايتها ، ونجحت أتم النجاح ، ومن ثم يعوزنا ـ مع هذا النجاح ـ أن نفسر بها لغز الموقف ، وان نفهم سر ذلك القرار الصارم ، الذى أصدره على نفسه بالعزلة والحرمان ، وهو في عز رجولته وعنفوان طموحه ؟

ولن نستبين مدى خطر هذه الرحلة ، اذا لم نعرف حالته النفسية قبل أن يسافر الى بغداد ، ونعي دلالة أخبار رويت عن حياته قبل السفر ، وأشعار قالها قبل أن يلقى بنفسه في خضم العاصمة الكبرى للعرب والاسلام .

والخبر الذى يلفتنا ، نقله معاصر لابى العلاء رواية عن شاهد عيان ، ففى « تتمة اليتيمة » يقول أبو منصور الثعالبي ، المتوفي عام (٤٢٩) .

« وكان حدثني أبو الحسن الدلفى المصيصى الشاعر ـ وهو ممن لقيته قديما وحديثا فى مدة ثلاثين سنة ـ قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب : رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول :

أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لى وأحسن بى ، اذ كفانى رؤية الثقلاء البغضاء » .(١)

وللخبر دلالته ، على مقاومة أبى العلاء لظروفه الاليمة ، وتحديه لمحنته القاسية ، واصراره على الا يستسلم لما تكبله به من قيود وما تفرضه عليه من انكماش وانطواء .

وحتى اذا ارتبنا فى صحة الخبر ، فان أبا العلاء نفسه يقدم لنا الدليل

---

(١) تتمة اليتيمة : ج١ ص٩ ط طهران ١٣٥٣

غير المتهم ، على هذه المعركة التى كان يخوضها ، لكى يتحـدى المحنة ، ويفرض وجوده على الدنيا والناس • ويحسن بي هنا أن أنقل بعض أبيات من لاميته المشهورة التى قالها في مطلع شبابه : مفاخرا ومكابرا :

الا في سبيل المجد ما انا فـاعل   عفاف واقدام وحـزم ونائـل

• • • • • • • • • • • • • • •

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم   باخفاء شمس ضوؤها متكـامل

يهم الليالى بعض ما انا مضمـر   ويثقل رضوى بعض ما انا حامل

واني وان كنت الاخير زمـانه   لآت بما لم يستطعه الاوائـل

واغدو ولو أن الصبـاح صوارم   واسري ولو ان الظلام جحافـل

ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي   على أنني بين السماكين نازل

لدى موطن يشتاقه كل سيـد   ويقصر عن ادراكـه المتنـاول

ينافس يومي فيّ أمسـي تشـرفا   وتحسد اسحاري عليّ الاصائـل

وطال اعترافي بالزمان وصرفـه   فلست ابالى من تغول الغوائـل

فلو بان عضدي ما تاسف منكبي   ولو مات زندي ما رثته الانامـل

اذا وصف الطائي بالبخل مـادر   وعير قسـا بالفهاهـة باقل

وقال السها للشمس : أنت خفية   وقال الدجى : ياصبح لونك حائل

وطاولت الارض السماء سفاهـة   وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

فيا موت زر ان الحياة رخيصـة   ويا نفس جدي ان دهرك هازل [1]

أهذا المتحدي الطامح ، هو من عرفتموه رهين محبسيه بعد عودته من بغداد ؟

---

(١) سقط الزند : ١ـ١٠٩

أهذا المفاخر المكابر ، النازل بين السماكين ، الغادي ولو أن الصباح صوارم ، والسارى ولو أن الظلام جحافل ، هو من عرفتموه مقيدا مهيض الجناح ؟

واللامية ليست كل رصيده فى « سقط الزند » من شعر المفاخرة والمكابرة والتحدي ، فمعها من هذا الصنف كثير ، معها مثل قوله :

بأي لسان ذامني متجاهل — عليّ ، وخفق الريح في ثناء
تكلم بالقول المضلل حاسد — وكل كلام الحاسدين هراء
اتمشي القوافي تحت غير لوائنا — ونحن على قوالها أمراء ؟
ولا سار في عرض السماوة بارق — وليس له من قومنا خفراء ! (١)

بل معها كذلك ، غزليات رقيقة ، يشدو فيها ضرير المعرة للحب والحياة ، ويشكو مواجد العشق والهيام :

كم قبلة لك فى الضمائر لم اخف — فيها الحساب لانها لم تكتب
ورسول أحلام اليك بعثته — فأتى على يأس بنجح المطلب(٢)

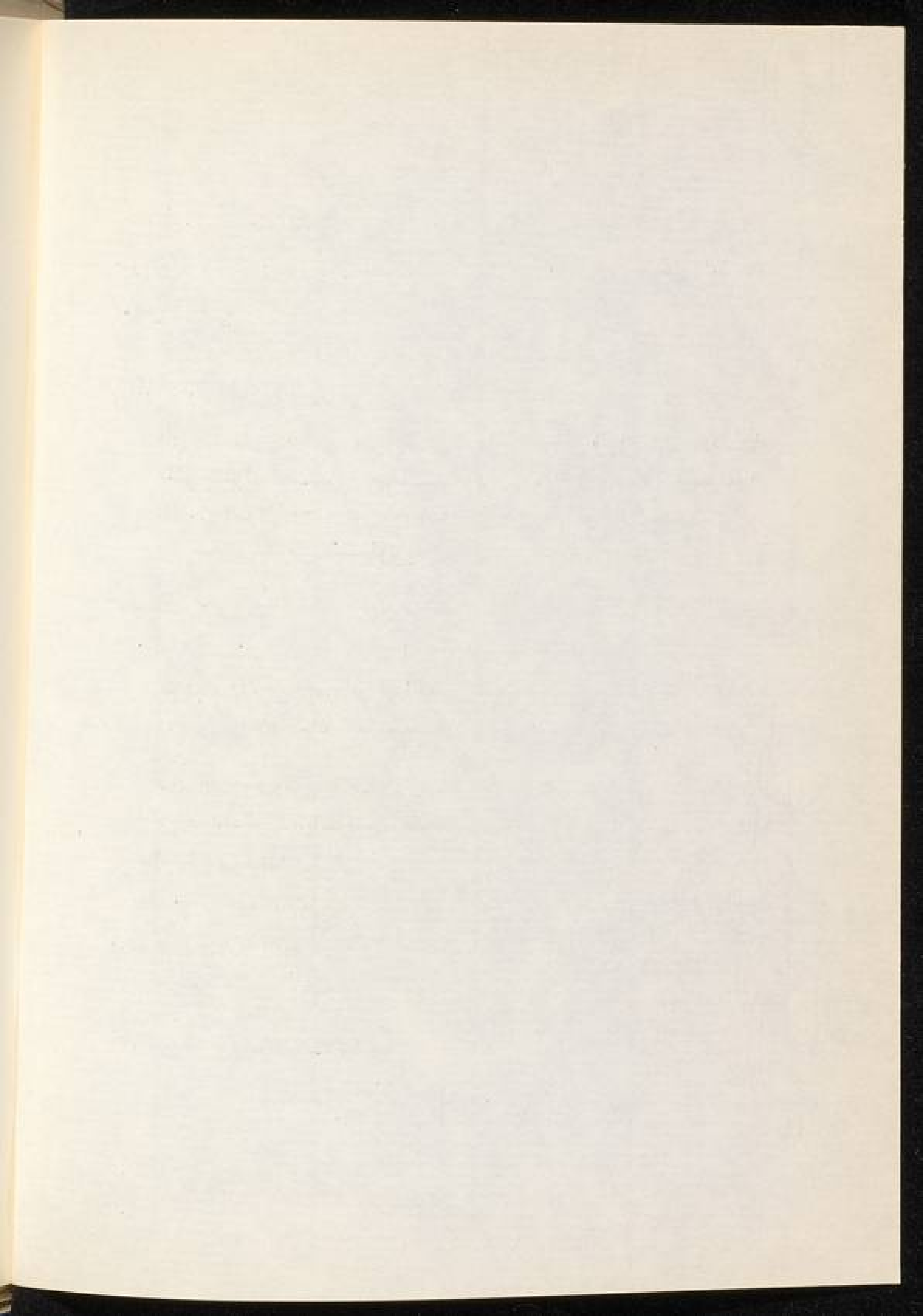
*

منك الصدود ومنى بالصدود رضا — من ذا علي بهذا فى هواك قضى؟
بى منك مالو غدابالشمس ماطلعت — من الكآبة ، أو بالبرق ما ومضا
اذا الفتى ذم دهرا فى شبيبته — فمايقول اذاعصر الشباب مضى؟(٣)

كلا لم يكذب المصيصي الشاعر ، حين قال للثعالبي انه شاهد في المعرة عجبا من العجب .

---

(١) سقط الزند : ١ـ٨٥
(٢) السقط : ٢ـ٣١
(٣) سقط الزند : ١ـ١٣٧



الشاعر العجب

لم يكذب المصيصي الشاعر حين قال للثعالبي انه شاهد فى المعرة عجبا من العجب : شاعرا أعمى ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ويأخذ في كل فنون الهزل والجد ، وهذا أبو العلاء يقول في شعره الاول :

رب ليل كانه الصبح فى الحسن وان كان اسود الطيلسان
قد ركضنا فيه الى اللهو حتى وقف النجم وقفة الحيران
وكانى ما قلت والبدر طفل وشباب الظلام فى عنفوان
ليلتى هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان
هرب النوم عن جفوني فيها هرب الامن عن فؤاد الجبان
وكان الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقان
وسهيل كوجنة الحب فى اللون وقلب المحب فى الخفقان
يسرع اللمح فى احمرار كما تسرع فى اللمح مقلة الغضبان
ثم شاب الدجى، فخاف من الهجر فغطى المشيب بالزعفران

هذا صوته قبل الرحلة الى بغداد ، ينبئكم أنه سافر اليها متفتحا للحياة ، بعيد الطموح واسع الآمال ، أو هذا – على الاقل – هو ماكان يبدو من ظاهر سلوكه وأقواله ، أو ما خيله له الوهم وأضله فيه السراب ، اذ يمضي فى معركته النفسية ، يريد أن يتحدى المحنة ويغالب القدر ويعاند الايام ، وقد مضى به التحدي الى أقصى المد ، فسافر الى بغداد ليحسم معركته ، ويطلب حظه من الجاه والمجد ، ويرضى ما خامره فى صباه من نوازع الطموح •
وكان قد سافر من قبل ذلك الى طرابلس ، وأتى على كل ما في خزائنها من علم ، وذاعت له شهرة اقليمية ، ان لم يشهد بها ما رواه ابن فضل الله العمري فى « المسالك » من أن « أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير فسافر جماعة من أكابرهم لمشاهدته وسألوا عنه ، فقيل لهم هو يلعب مع الصبيان ، فجاءوا اليه ، وقيل له : هؤلاء جماعة من أكابر حلب أتوا لينظروك ويمتحنوك فقال لهم : هل لكم فى المقافاة بالشعر ؟ فقالوا نعم ، فجعل كل واحد منهم ينشد بيتا ، وهو ينشد على قافيته ، حتى فرغ حفظهم بأجمعهم وقهرهم ، فقال لهم : أعجزتم أن يعمل كل واحد منكم بيتا عند الحاجة اليه على القافية التى يريد ؟ فقالوا له فافعل أنت ذلك ، فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا أجابه من نظمه على قافيته ، حتى قطعهم كلهم »
أقول اذا لم يشهد هذا الخبر ومثله بما ذاع له من شهرة اقليمية ، فان لامية أبى العلاء فى « سقط الزند » دليل لا يتهم ، على « أن ذكره سار في البلاد ، فمن لهم باخفاء شمس ضوؤها متكامل » ، وقد بقي ، ليسجل هذه الشهرة ، أن تعترف به بغداد ، وقد كان اعترافها بعالم أو أديب مطمح كل من يجد

في «واهبه أو علمه ، ما يؤهله لان ينال شهادة الاعتراف به من « دار العلم» حاضرة العربية والاسلام .

ولست أدري ، على وجه اليقين ، ما اذا كان قد أحس بوادر هزيمته مع نفسه ومع الدنيا ، فسافر الى بغداد امعانا فى المقاومة ، وفرارا من الاستسلام ؟ أو أنه كان لا يزال سادرا فى أوهام انتصاره ، ملقيا اليها زمامه ، تقوده الى البلد الذى يسجل له هذا الانتصار ، ويملأ كأسه بما اشتهى من مجد ومتع كبار ، لكن الذى أدريه يقينا ، انه شد رحاله الى دار السلام ، وملء نفسه أمل ورجاء فى قهر ظروفه ، والانتصار على قيود محنته ، وفرض وجوده على الدنيا والناس ، وتزود للرحلة بأسلحته التى يملكها : ذكاء أسطوري ، وفقه عميق بعلوم العربية والاسلام ،وموهبة أدبية أصيلة ومبدعة .

تلك كانت أسلحته فى الجولة الاخيرة لمعركته مع نفسه ومع القدر .

فكيف كانت رحلته ؟

وعى الزمن من أمرها أخبارا مبعثرة نلتقطها من شتى كتب التراجم التى تحدثت عن الرحلة ، ونقف أمامها طويلا ، لندرك وقعها على وجدان الشاب الطامح المناضل الموهوب .

فهم يذكرون فى معرض الحديث عن ذاكرته العجيبة ، أنه مر - راكبا جملا - بشجرة فى طريقه الى بغداد ، فقال له من يقوده : طاطىء رأسك . ففعل حتى اذا آب من رحلته بعد عام وبعض عام ، ومر بذلك الموضع ، طأطأ رأسه من تلقاء نفسه ، فسئل فى ذلك فقال ها هنا

شجرة قالوا ما ها هنا شيء • فقال : بلى • وفحصوا الموضع ، فاذا أصل شجرة مجتثة (مسالك الابصار) •

طأطىء رأسك ! ما أثقلها من كلمة على الحس المرهف، لهذا الضرير الذى يخرج لاول مرة ، الى خضم العالم الواسع العريض ، وقد كان من قبل ، قد ألف الحركة في حدود عالمه الصغير الضيق ، ما بين المعرة وحلب وطرابلس ، وربما استغنى بمثل هذه الحاسة العجيبة والحافظة الواعية ، عمن يقول له : طأطىء رأسك !

وحدد الاخباريون ليوم وصوله الى بغداد ظرفا أليما ، لطم قلبه الحساس لطمة قاسية ، ويروي صاحب « المسالك » مشهد وصوله بشيء من تفصيل فيقول :

« واتفق يوم وصوله الى بغداد ، موت الشريف الطاهر ، والد الشريفين الرضي والمرتضى ، فدخل أبو العلاء الى عزائه والناس مجتمعون والمجلس غاص بأهله ، فتخطى بعض الناس فقال له ولم يعرفه : الى أين يا كلب ؟ فقال : الكلب من لا يعرف للكلب كذا وكذا اسما • ثم جلس فى أخريات المجلس ، الى أن قام الشعراء وأنشدوا ، فقام أبو العلاء وأنشد قصيدته التى أولها :

أوْدَى فليت الحادثات كفاف   مال المسيف وعنبر المستاف

يرثي بها الشريف الطاهر • فلما سمعه ولداه ، قاما اليه ورفعا مجلسه وقالا له : لعلك ابو العلاء المعري ؟ قال نعم • فاكرماه واحترماه •

مأتم يستقبله يوم وصوله ، والكلب أول ما يسمع من بغداد لقبا ؟ ما أعجبه من اتفاق ! لكأنما وقفت الدنيا تنتظر مترصدة ، مقدم هذا المغـرور لترده الى موضعه ؟

ولـكن الشاب يكابر ، ويخرج من جعبته أحد أسلحته ، ليواجـه من تعرض بالقذف الجارح ، الكلب من لايعرف للكلب سبعين اسما ، ومرثية رائعة يقولها على البديهة دون اعداد ، فيظفر باعجاب الشريفين •

واطمأن الى أن شهرته قد سبقته الى بغـداد ، حين سأله الرضـى والمرتضى : لعلك أبو العلاء !

فليتجاهل الطعنة ، وليمض فى طريقه غير مبال •

لكن البغداديين لم يكونوا بحيث يكتفون بشهادة اقليمية ، يحملها معه من خارج العاصمة أو تسبقه اليها • فما يبهر الناس فى المعرة ، أو حلب ، قد يكون فى العاصمة الكبرى غير لافت ولا مثير ولابد من ان يكون لاهل بغداد الكلمة العليا فيما ذاع لهذا الرجل من شهرة اقليمية ومن ثم أعدوا له امتحانا ، أشار اليه ابن فضل العمري فقال : « ولما دخل بغداد أرادوا امتحانه ، فأحضروا دستور الخراج الذى فى الديوان ، وجعلوا يوردون ذلك عليه مياومة وهو يسمع ، الى ان فرغوا ، فابتدأ أبو العلاء ، وســرد عليهم كل ما أوردوه له •

وهكذا اجتاز الامتحان ، وأقر له البغداديون بانه اعجوبة الزمان فى حفظه وأدبه وعلمه ، وبدا له ان المعركة توشك ان تنتهي ، الى ذروتها الحاسمة •

وكانت فعلا على وشك الانتهاء الى ذروتها الحاسمة ، لكن ليس على الوجه الذى أراده أو وهمه .

دخل خزائن العلم ، وعرض عليه كل ما فيها من كتب ، فوعاها حفظا أو لم يجد فيها جديدا ، غير ديوان واحد استعاره ، وقد ظل طويلا يذكر جولته بين الوراقين فى مدينة السلام ، ويعى أدق ما وعي من خزائنها ، فلقد أملى فى رسالة الغفران - حوالى عام ٤٢٤ ما نصه : وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافية عدي بن زيد : بكر العاذلات .. أما تستفيق : وزعم الوراق ان « ابن حاجب النعمان » سأل عن هذه القصيدة وطلبت فى ديوان « عدي » ، فلم توجد ثم سمعت بعد ذلك رجلا من اهالى استراباذ يقرأ هذه القافية فى ديوان « العبادي » ولم تكن فى النسخة التى فى دار العلم »[١] .

وقرىء عليه ديوانه « سقط الزند » ، وأحب بغداد ، وظن أن الزمان يسعفه على المقام بها .

لكن القدر لا يغلب ، ولا يعاند .

واذا كان أبو العلاء لم يلق سلاحه يوم دخل بغداد وهى فى مأتم على الشريف الطاهر وسمع الكلمة الجارحة فجلس فى أخريات المجلس الى أن جمع نفسه وانشد مرثيته ، فان الايام كانت تدخر له ما هو أقسى وامر :

ذكر ابن الانباري فى « النزهة » ، أنه قصد مجلس امام النحو ببغداد

(١) رسالة الغفران : تحقيق بنت الشاطىء ص١٣٨ ط ٢- ذخائر العرب

أبي الحسن علي بن عيسى الربعي ، ليقرأ عليه شيئا من النحو . فلما استئذن له قال : « ليصعد الاصطبل » ـ وهو الاعمى بلغة أهل الشام كما ذكر ياقوت في أدبائه ، والصفدي في « نكت الهميان » .

وانصرف أبو العلاء ، وفى قلبه أثر السهم الجارح ، جاءه هذه المرة من عالم امام وليس من رجل عامي يجهله فى مأتم الشريف .

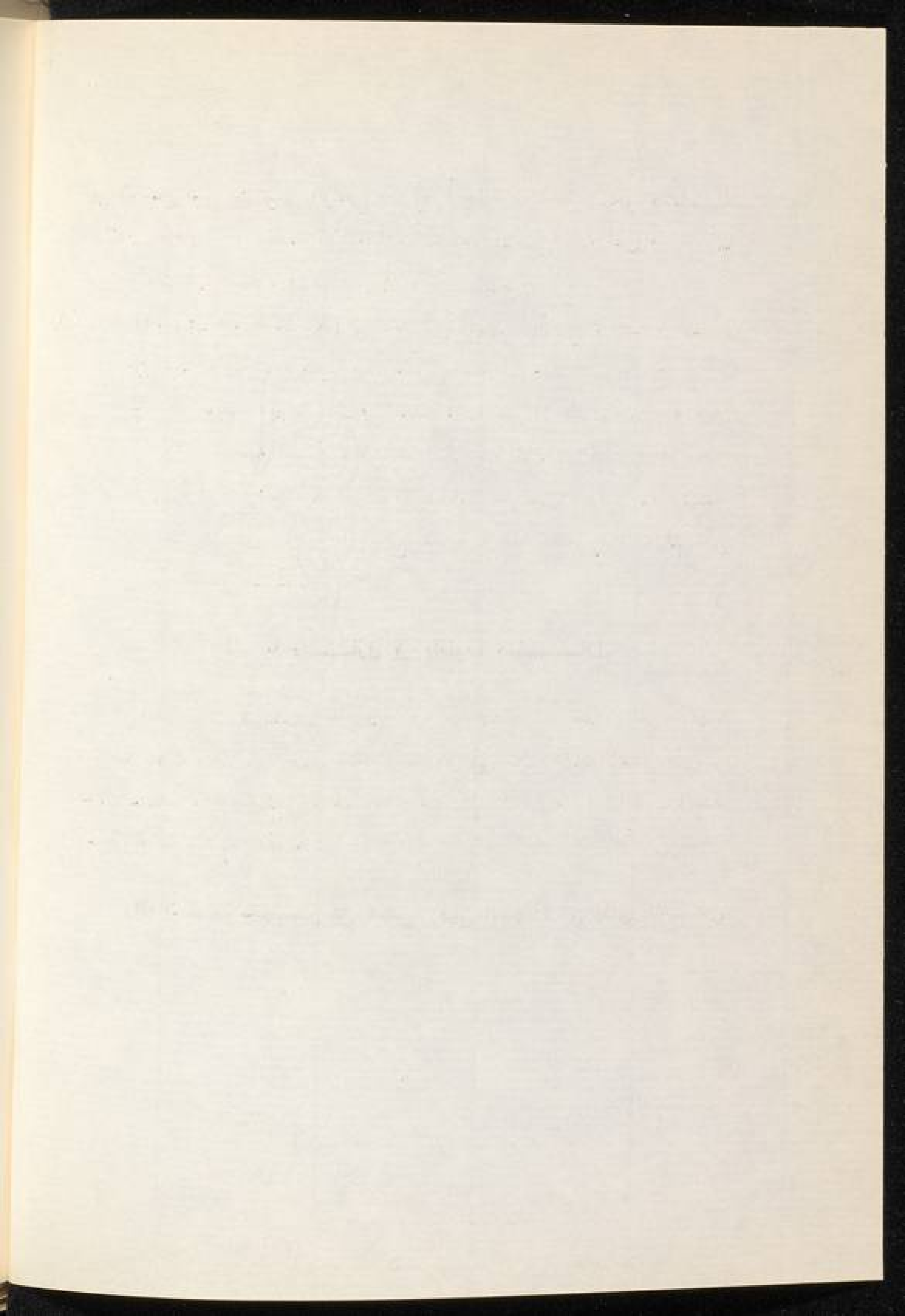
وتركها تفوت ، وما يزال فى طاقته قدرة على الاحتمال والمقاومة .

ثم كانت الطعنة المميتة ، من يد الشريف المرتضى نفسه ، ففي خبر نقله ياقوت ، ان أبا العلاء « كان يوما بمجلس المرتضى ، وقد جاء ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى ، وجعل يتتبع عيوبه . فقال المعري : لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله :

لك يا منازل في القلوب منازل

لكفاه فضلا . فغضب المرتضى ، وأمر فسحب برجله وأخرج مهانا من مجلسه ، وقال لمن يحضرونه : أتدرون أى شيء أراد الاعمى بذكر هذه القصيدة ، فان للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكره ؟ قالوا : النقيب السيد أعرف . فقال : أراد قوله :

واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل



الرجعة الى المحبسين

« ولما رجع الى المعرة ، لزم بيته فلم يخرج منه ، وسمى نفسه رهين المحبسين » أتفوت هذه أيضا ؟ ان يكون أبو العلاء قد تحامل على نفسه واحتمل طرده من مجلس الشريف مهانا مسحوبا برجله ، فلابد أنه كان يشق على نفسه كثيرا ، ويرفض ان يصغي اليها وهي تسأله في الحاح ، الام تجرع الهوان ، وما في طبعك ما يطيقه ؟ بل الام المضي في المقاومة والمكابرة والمعاندة ، وهذا هو مكانك فى مجلس امام النحو ، وفى مجلس الشريف الذى أقر بفضلك حين انشدته مرثيتك في ابيه ؟

ولكن الذى لا ريب فيه ، انه اذا كان لم ينسحب من المعركة ظاهريا، فقد انسحب منها نفسيا ، وبدأ يحس التعب والملال . واقام بعد ذلك ما أقام فى بغداد ، وهو يختبر اسلحته من جديد :

الادب ؟ لا جدوى منه الا اذا عزف للسلطان ، وتمرغ على أعتاب ذوي الجاه والثراء ! العلم ؟ ان مجتمع العاصمة في عصره ، يقدر من يعرف كيف يأتي بالكلب أو الذئب من ذيله أكثر ممن يعرف له سبعين اسما أو ثمانين !

الذكاء ؟ وماذا يجدى فى خضم يموج بالمغامرين وذوي الحيلة والمكر ، فلا يغلبه الا من تلون وداور ، واحتال ؟

العفة والاباء والصدق ؟ يا لها من بضاعة نافقة فى سوق تروج فيها النفاق والمداهنة ، والزيف والخداع ! والكذب والادعاء •

أجمع أمره على العزلة ، وهو ما يزال فى خضم المعترك ، حين أيقن أن أسلحته لا تجدى ، ما دام قد أعوزته أسلحة أخرى لا يملكها ، من مكر الحيلة ونعومة المداهنة ولؤم النفاق •

واستسلم للهزيمة ، وهو مقيم ببغداد ، حين أدرك بملء يقينه أن المكابرة ضالة وان الامل في النصر سراب ، وان النضال عقيم ، وأحس ألا مكان له في دنيا الناس ، وقد أعوزه عمى البصيرة ، وبلادة الحس والضمير ومرونة فى الخلق والطبع ، يتلون بها في موكب المنافقين والمهرجين •

وعلى هذا النحو ، بلغت المأساة ذروتها ، قبل ان يحمل اشلاء شبابه المقهور ، ورجائه الضائع • وقلبه الكسير ، ليعود من حيث أتى ، الى محبسه فى معرة النعمان •

واستقر عزمه على الاستسلام حين لم تعد تجدي مكابرة وعناد ، ولم يكن في حاجة ، لكى يصمم على الانسحاب ، الى انتظار مطاردة من فقهاء

بعداد ، الذين رابهم قوله في اليد فديتها خمسمائة دينار ذهبا ، وتقطع - في السرقة - بربع دينار ، حتى ولو لم نستريب في الخبر ، على ما يحف به من ظلال الريب على هذا النحو : فقد جاء على هذه الصورة ، مرتبطا برحلة بغداد ، في « البداية والنهاية » لابن كثير وهو من القرن الثامن وفي عقد الجمان للعيني وهو من القرن التاسع ، أي بعد عصر أبي العلاء بثلاثة قرون أو أربعة ، أما معاصروه من الاخباريين - كالثعالبي ، والخطيب البغدادي ، والباخرزي ، والسمعاني وابن الانباري ، فلم يشيروا اليها قط ، وجاء « الصفدي » في الوافي بالبيتين - وهما من اللزوميات - والرد عليهما ، دون ان يحدد زمانا أو مكانا ، على حين أورد ابن حجر وهو معاصر للعيني - الخبر على صورة أخرى ، لا صلة لها بالرحلة البغدادية ، قال : « قال السلفي : سمعت أبا زكرياء التبريزي يقول : لما قرأت على أبي العلاء بالمعرة قوله :

يد بخمس مئين عسجد فديت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا الا السكوت له وان نعوذ بمولانا من النار

سألته عن معناها ، فقال : هذا مثل قول الفقهاء : « عبادة لا يعقل معناها »[1] .

أقول ان أبا العلاء ، لم يكن بحاجة الى مطاردة الفقهاء ، ليخرج من بغداد هاربا « طريدا مهزوما » - ان صح الخبر - فقد أجمع أمره على

(١) أنظر (تعريف القدماء بأبي العلاء) ص ٣١٤ ط دار الكتب بالقاهرة ولزوم ما لا يلزم : ١-٣٨٦

العزلة قبل أن يخرج من بغداد بزمان ويشهد بهذا قوله في رسالته الى السكن المقيم بالمعرة :

« أما الان فهذه مناجاتي اياهم منصرفي عن العراق : مجتمع أهل الجدال وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت ، وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر اشطره وجربت خيره وشره ، فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة ، عزلة تجعلني من الناس كبارح الاروى من سانح النعام . فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزما ، وعده اذا تم رشدا . وهو أمر سرى عليه بليل ، قضى ببقة . ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ،ولكنه غذى الحقب المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل »[1] .

كما يدفع خبر المطاردة والهروب ، ما سجله ابو العلاء في رسالته الى خاله ، من اكرام البغداديين له ، وحزنهم على فراقه :

« ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد ، فلقد أفردوني بحسن المعاملة وأثنوا علي في الغيبة ، وأكرموني دون النظراء والطبقة ، ولما آنسوا تشميري للرحيل ، وأحسوا بتأهبي للظعن أظهروا كسوف بال ، وقالوا من جميل كل مقال ، وتلفعوا من الاسف ببرد قشيب ، وذرفت عيون أشياخ شيب»[2].

وختم رسالته الى أهل المعرة : « ويحسن ـ الله جزاء البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم،وعرضوا

---

(١) الرسالة الثامنة من رسائل أبي العلاء ط أكسفورد .
(٢) الرسالة السابعة .

علي أموالهم عرض الجد ، فصادفوني غير جذب بالصفات ، ولا هش الى معروف الاقوام ، ورحلت وهم لرجيلى كارهون ، وحسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون » •

ويلفتنا هنا ، أن أبا العلاء ، قد سجل شهادة العاصمة له بالفضل والعلم ، واذن فلم تكن رحلته لهذا وحده ، وانما كانت هذه الشهادةالمرجوة بعض ما يتعلق به في معركته مع نفسه ، ومغالبته للقدر وتحديه للعمى الذى زين له وهم المكابرة انه نعمة ! والا فلو كانت الشهادة غايته ومبتغاه ، لارضاه هذا الظفر بها ، ولما عاد الى المعرة ، مهزوما مطاردا ، لا من فقهاء بغداد ، ولكن من نفسه ، ومن القدر •

وسجل أبو العلاء نفسه ، تاريخ خروجه من المعركة ، وعزلته فى محبسيه ، بعام أربعمائة •

فماذا صنعت بغداد ، بمن قصد اليها طامحا آملا متفتحا للحياة ، فردته الى محبسيه ـ في عز رجولته ـ مهيض الجناح مكسور الخاطر ضائع الحيلة؟

لم تفعل شيئا الا أنها ردته الى نفسه أو ردت اليه نفسه ، بماكشفت له عن عقم مكابرته وعبث محاولته أن يهرب من ذاته ، وان يتحدى محنته فيعد العمى نعمة ، ويتحدى الايام باسلحة ظنها تحقق له الظفر : الذكاء والعلم والادب ، والصدق والتعفف والاباء •

هنا أيضا ، لن نستبين مدى خطر الرحلة ، فى تحويل مجرى حياته ، وتقرير مصيره أديبا انسانا ، الا اذا أصغينا الى أصداء انسحابه من بغداد ، وانسحابه بعدها من دنيا الناس فى اعترافاته المثيرة ، التى تشجينا وتهزنا،

على بعد العهد بها .

وأول ما نسمعه منها ، في رسالتيه اللتين أملاهما عند خروجه من العراق وفيهما اعتراف صريح بأنه لم يزهد في بغداد كما زعم بعض دارسيه ، وانما أحبها صادقا ، وتمنى لو يسعفه الزمان على المقام بها ، لكن أعوزته الحيلة والوسيلة ، وفاتته فرصة التزود للمعركة بأسلحتها وأصدر على نفسه قرارا بالعزلة والحرمان ، لما فاته المقام بحيث اختار ،

« لنفسي أقول : أعيتني بأشر فكيف بدردر ، وعصيتني من شب الى دب ليس بعشك فادرجي . هذا أحق منزل بترك الصيف ضيعت اللبن ، الربيع أغفلت الكمأة ، وعلى المفازة أرقت السقاء عودى الى مباركك .

« وكنت ظننت ان الايام تسمح لى بالاقامة هناك ، فاذا الضارية أحجأ بعراقها ، والامة أبخل بصربتها ، والعبد أشح بكراعه ، والغراب اضمن بتمرته . ووجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جمرة العقبة . وأقرب من الجريدة باليمامة ولكن على كل خير مانع ..

اذا لم تستطع شيئا فدره وجاوزه الى ما تستطيع

يكفيك ما بلغك المحل . ان عجز ظل عن شخصك فلا يعجزن عن عضو منك ، فلما زينت الضروس الحالب ، ونزت العنود تحت الراكب . وغشى الثول وجه المشتار ، وخيب رائدا سحاب ، وكذب شائما برق ... عادت لعترها لميس ، وذكر وجاره ثعالة ، وطرب لوكنته ابن داية .

« لو علمت أنى أرجع على قروائى ، لم أتوجه لهذه الجهة ، ولكن البلاء موكل بالمنطق والحيرة مغية ، لا يدرى الرجل بم يولع هرمه ، ولا الى أى أجمة يسوقه جده : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » .

« والذى أقدمنى تلك البلاد مكان دار الكتب بها :

ولست وان أحببت من يسكن الغضى   بأول راج حاجة لا ينالهـــــا

شرفا لذلك المنزل منزلا ، وللساكنين به نفرا ، ولماء دجـــلة واديا ومشـــربا :

واني وتهيامي بعـــزة بعدمـــا   تخليت من حبل الهوى وتخلـت
لكالمبتغي ظــل الغمامة كلمـــا   تبوأ منهـا للمقيل اضمحلـت

« ولما فاتنى المقام بحيث أخترت ، أجمعت على انفراد يجعلنى كالظبى فى الكناس ويقطع مـا بينى وبين النـاس ، الا من وصلنى الله بـه وصـل الذراع باليد »[١] .

« ... ولكن آثرت الاقامة بدار العلم فشاهدت انفس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه ، والجاهل مغالب القدر »[٢] .

لشد ما تغير ، ذلك الشاب الذى عرفناه قبل الرحلة الى بغداد ؟

أهكذا ما بين عام وتاليه ، يحدث كل ذلك الانقلاب ؟

---

(١) من رسالة الى خاله (علي) ـ انظرها في رسائله ، ط · اكسفورد ص ٢٨ـ٣٣

(٢) الرسالة الشامية ، من رسائله · ط اكسفورد

فلنتبعه الى محبسيه ، ولننظر ما صنعت به الايام بعد أن ظفر أو وهم أنه ظفر براحة اليأس ؟

أما رحلة الاياب ، فكانت شاقة مريرة ، وصفها بتفصيل في رسالته الى خاله .

من صميم عزلته ، تتابعت رسائله الى بغداد ، معلنا انه ما يزال يكابد الشوق ويحاول أن يئد حنينه اليها ، فهو فى رسالة كتبها[1] من المعرة الى أبى بكر محمد بن أحمد الصابوني البغدادي ، يؤكد ان شوقه اليه والى الجماعة الذين عرفهم بمدينة السلام « كالنسيم لا يجمد ونار فارس ليست تخمد » وان فى رسالة تالية ، الى عبد السلام البصرى ، يقول : « ولوقدرت لم أقدح الا بمرخ ، ولا سكنت غير الكرخ ، ولكن نضوى معقول »[2] .

وتدل رسالة بعث بها الى « ابى منصور » خازن دار العلم ببغداد » علىانه ظل يوالي ارسال كتبه ـ اى رسائله ـ الى مدينة السلام بعضهن في اثربعض ، وعلى انه كان يحزن ، اذا لم يتلق لهن جوابا ، ويقول فيما يقول « أما أنا فعلي الجهد ، ولا معتبة ان وقع في زهد »[3].

وأملى فى رسالة أخرى الى صديق له نزيل دمشق :

« ودمشق عروس الشام المرموقة ، وواسطة عقدها المرموقة ، وأرجو أن يكون قد سلاه ماؤها عن ماء دجلة ، وقد كنت عرفته أن من رحل عن بغداد لم يجد منها عوضا ، وان وجد محلا مروضا ، لان غابر العلم

(١) الرسالة ١٥ ص ٤٥

(٢) الرسالة ١٦ ص ٤٧

(٣) الرسالة ١٩ ص ٥٣ .

بها غريض ، وصحيح الادب فى سواها مريض ، والشام أكثر ارفاقا وأقل نفاقا»[1] .

ويقول في اللزوميات :

أريد الاناخة في منزل	وقد حديت لسواه جمالى
فمن مخبري : اغريق البحا	ر الفى الردى ، ام دفين الوصال
هويت انفرادي كيما يخف	عمن أعاشر ثقل احتمالى
امالى فيما أرى راحة	مدى الدهر من هذيان الآمالي

ولم تدر « بغداد » وهى ترد أبا العلاء الى معرة النعمان ، انها التى جعلته يجد نفسه ، بعد ان أضاعها أو شغل عنها زمنا ، بهذا النضال العقيم والمكابرة غير المجدية ، ـ لنسمعه يملى ـ وهو رهين محبسيه ـ فصوله وغاياته ، كلمات مؤثرة ، معبرة في صدق ، عن نفسه التى وجدها ، ومرجعة أصداء الخيبة ، وضلال المسعى :

« أرتفع والقدر يكبني ، يألبني دائما ويلبني ، كم أستنسر وأنا من البغاث[2]» . (٢١٦)

« وان الله خلقني لامر حاولت سواه فألفيت المبهم بغير انفراج ، وفطام ابن عامين أيسر من فطام ابن الاعوام ، وأعيا تأديب الهرم على الادباء . » . (٢٣١) .

---

(١) الرسالة ٢٢ ص ٥٧ .

(٢) الارقام التى ذيلت بها الشواهد من « الفصول والغايات » تشير الى صفحاتها وفي طبعة حجازي بالقاهرة : ١٩٣٨ .

« قد فررت من قدر الله فاذا هو أخو الحياة • هل أطأ على غيرالارض أو أبرز من تحت السماء ؟ » • (٢٥١) •

« انما أنا كرجل بلى بالصدى ، لا يجد وردا ولا موردا ، فهو ظمآن أبدا : ان ورد غروفا وجده مضفوفا ، وان صادف نزوعا أعوزته الآلة والمعين » (٣١٦)

« المرء يقدر ولغيره الامور : يحسب انه يملك ويحوز ؟ كذب ! لله النفوس • (٣١٠)

لم تدر « بغداد » وهي تودع ضيفها كارهة ، انها أسدت الى التاريخ العربي والانساني أديبنا الاكبر ، حين صهرته بالتجربة القاسية ، وكشفت عن بصيرته الغطاء ، ليكشف لنا بدوره عن انسانيةمعاناته للحياة ، وصدق انفعاله بالدنيا ، وليوءكد لنا ـ بأقصى ما يستطيع من صراحة وصدق ـ أنه ما زهد فى هذه الدنيا راضيا ، ولا انصرف عن نعمها مختارا ، ولا انتصر عليها ، فألقت اليه قيادها ، مكذبا بذلك كله ، ما شاع عن احتقاره للدنيا ، ومقته اياها ، وزهده الاختيارى فيها[1]:

لقد عرفها غادرة خادعة ، لئيمة قاسية ، بالية فانية ، ومع ذلك لم يفلح أبدا فى ان يقهر حبه لها ، على طول ما حاول وجاهد •

ايها الدنيا لحاك الله من ربّة دل
ما تسلى خلدى عنك وان ظن التسلى

(١) عالجت هذه القضية ، فى الفصل السابع من كتاب « الحياة الانسانية عند أبى العلاء » ط دار المعارف ١٩٤٤ •

لو ان عشقك للدنيا له شبـــح صوّرته ، لملأت السهل والجبلا
(١٩٣/٢)

*

صحبت عيشـــا اعانيه ويغلبني مثل الوليد يقود المصعب السدما
وقد مللت زمانا شره لهـــــب اذا دنـــا لخبـــو عاد فاحتـدما
(٢٨/٢)

*

تنازعني الى الشهوات نفســـى فلا أنا منجح ابدا ، ولا هـــى
(٤٢٢/٢)

ويقول في « الفصول والغايات » :

« أيتها الدنيا البالية ، ما أحسن ما حلتك الحالية . والنفس عنك غير سالية ! » **(١٤٩)**

« قلتنى دنياي فما قليتها .. » **(٢٢٣)** .

« زويت عنى الدنيا فأسفت ، وأشفقت لذلك وخفت ، وأحببت لهـا وشنفت ، ولو أنصفت لعفت ما أستوبله فما نثفت **(٣٤٨)** .

« .. (مولاى) لا أكتمـك ما انت عليـم أن أسفى على الدنيـا لطويل » **(٣٤٣)**

« احب الدنيا وآلتهـا ليست فيّ ، وقد يئست من بلوغهـا ، واليأس مريح ، فالام التشوف والضلال » . **(٣٥٨)**

أجل ، لم تدر بغـداد وهي تودع ضيفها ، انها اسلمته الى نفســه وصرفته عن معركة مع مثل ابن الربعي والمرتضى ، ليبدأ معركة جديـدة نبيلة ، يروض فيها بشريته على أقسى الـوان الحرمان ، لكى تسلم لـــه

كرامته وحريته ، محققا بسلوكه العملى كلمة قالها « الشنفرى » الشاعر الجاهلى الصعلوك ، من قديم الزمان :

أديم مطال الجوع حتى أمتنه   واصرف عنه الذكر صفحا فاذهل
وأستف ترب الارض كيلا يرى له   علي من الفضل ، امرؤ متفضل

ونبل هذه المجاهدة ، يتضح لنا جليا ، حين ندرك ان اديبنا الذى لم ينحرف لحظة عما التزم به من حرمان ، لمدى يقرب من نصف قرن ، لبث على طول ذلك المدى ، يخوض معركته النفسية العنيفة ، حتى بلغ به احتدام الصراع فى كيانه ، بين بشريته وبين رياضته ومثله ، ان هم بالانتحار على كبر السن ، وحدد وسيلته وموانعه ، فقال فى الفصول والغايات :

« لو أمنت التبعة لجاز ان أمسك عن الطعام والشراب ، حتى أخلص من ضنك الحياة ولكن أرهب غوائل السبيل » .**(٣٦٠)**

واذا لم تكن هذه الفقرة من فصوله وغاياته ، تحمل تاريخا معينا ، غير ذلك التاريخ العام للكتاب كله ، وهو الطور الثانى من حياته ، الذى بدأ برجوعه من بغداد ، فان « رسالة الغفران » تحدد لنا تاريخ المحاولة ، ففى الغفران يقول :

« قد كدت ألحق برهط العدم ، من غير الاسف ولا الندم ولكنما أرهب قدومي على الجبار ، ولم أصلح نخلى بابار[1] » .

والغفران كانت تملى حوالى عام ٤٢٤ ، على ما حققناه فى دراستها ،

---

(١) رسالة الغفران : تحقيق بنت الشاطىء ص ٣٨٧ ط ٢ـ ذخائر العرب

فأبو العلاء وقت املائها ، كان يخطو العام الاول بعد الستين[1]!

فيالها من مجاهدة نبيلة طال مداها ، لرياضة هذه البشرية على احتمال الزهد فيما تحب ، والصد عما تشتهي ، و « بغداد » هي التي مزقت عن بصيرة أبي العلاء الحجب والاستار ، ليكون لنا منه مثل عجيب لبطولة الاحتمال وبسالة المجاهدة .

وهي هى التى قررت مصير هذا الاديب الانسان ، الذى باع كل الدنيا ، وهو بها مولع ، لكى يشترى حرية فنه ، وصدق وجدانه ، وليحمل فى شرف رسالة الاديب وأمانة الكلمة فيظل ما عاش ، يقاوم الظلم والطغيان، ويحارب الرياء والنفاق ، ويقول ما يجد ، لا ما يروج عند ذوى الجاه والسلطان !

*

فلئن شق علينا ما صنعت بغداد بالشاب الطامح جاءها مزهوا بمواهبه ، منتشيا بآماله ، متحديا لمحنته ، فليغفر لها ذلك عنده وعندنا ، ان تلك الصدمة هى التى صنعت لنا منه الاعمى البصير ، والسجين الحر ، والمحروم النبيل ، والاديب الذى وجد نفسه كما لم يجدها قط أديب قبله .

وانى لاتمثله الان ، مطلا علينا من أفق خلوده على بغداد التى أحبها ما وسعه الحب ، ولعلنا نستمع الى صدى باق من صوته الشجى الحزين يأتينا من وراء الف عام فأكثر :

---

(١) أنظر في تاريخ املاء الغفران ، ص ٨ من كتاب « الغفران » ، لبنت الشاطىء ــ ط ٢ دار المعارف ١٩٦٢

يا عارضـــا راح تحدوه بوارقه　　للكرخ سلمت من غيث ونُحّيتـــا
لنا ببغداد من نهوى تحيتــــــه　　فان تحملتـــها عنـــا ، فحييتـــا
بت الزمـــان حبـالي من حبالكم　　أعزز عليَّ بكون الوصل مبتوتا[1]

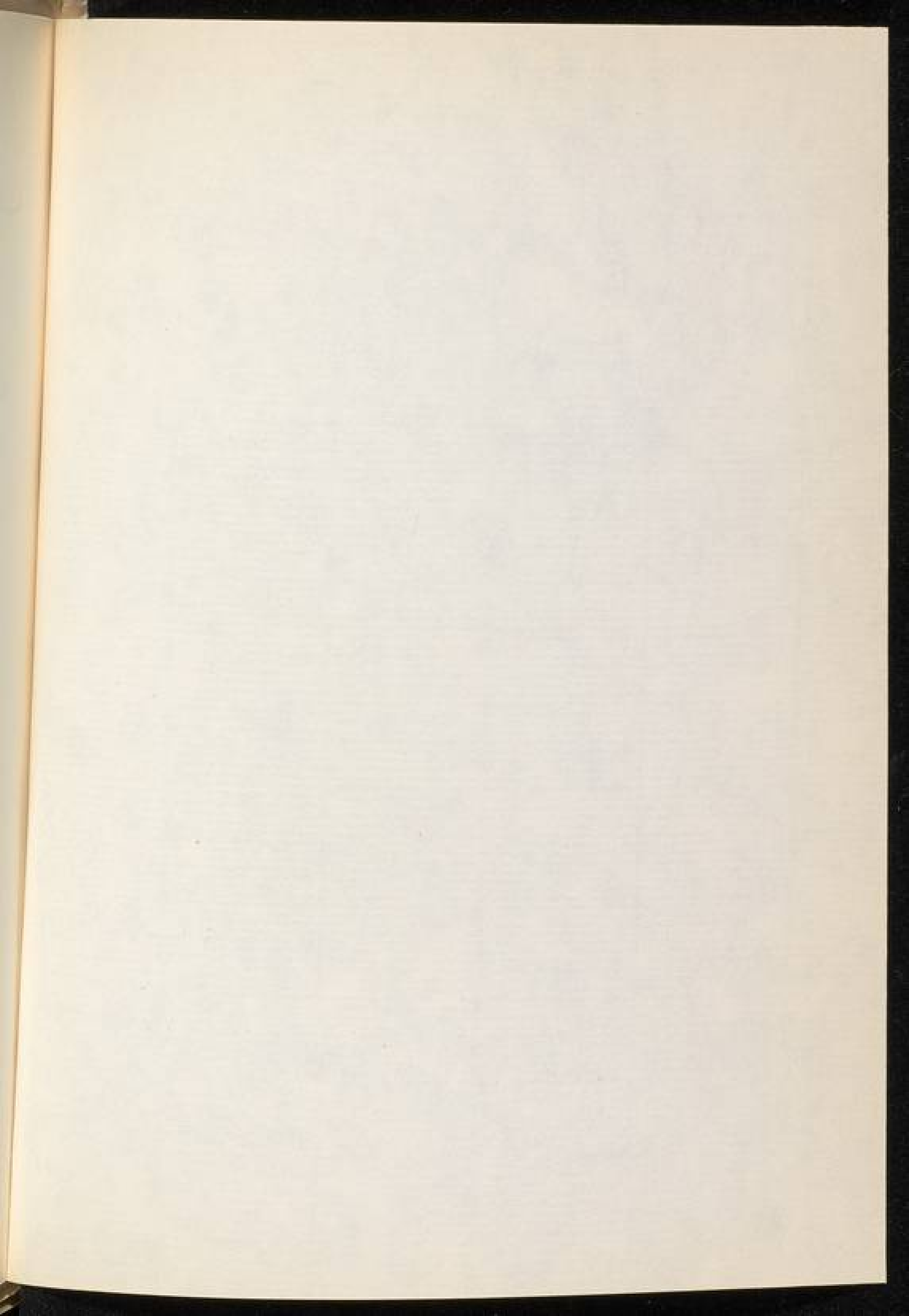
وها قد حملت تحيته ... الى بغداد العروبة ، بهذه الدراسة البسيطة فليحفظ الله بغداد ، موطن فكر وثاب ، واشعاع ثقافة لا ينفد . وليرحم أبا العلاء ، وابن زريق ، وكل شهيد ، رحل عنها فما انتفع بالعيـــش من بعدها ، ولا وجد منها عوضا .

مصر الجديدة
٦ نوفمبر ١٩٦٢　　　　بنت الشاطىء

(١) سقط الزند : ٢-١١٢

وبعـــد :

فهذه باقة يانعة من شعر أبي العلاء آثرنا تقديمهـا للقـارىء اكمالا لما جاءت به الدكتورة بنت الشاطىء ، علنا نتيح له فرصة أخرى لمصاحبة هذا الشاعر والتمتع بطيب مجالسته ..




نصوص علائية

ذكرى

عللاني ، فان بيض الاماني ،
فنيت ، والظلام ليس بفان

ان تناسيتما وداد أناس ،
فاجعلاني من بعض من تذكران

رب ليل كأنه الصبح ، في الحسـ
ن وان كان اسود الطيلسان

قد ركضنا فيه الى اللهو لما
وقف النجم وقفة الحيران

كم أردنا ذاك الزمان بمدح ،
فشغلنا بذم هذا الزمان

فكأني ما قلت ، والبدر طفل
وشباب الظلماء في عنفوان :

ليلتي هذه عروس من الزنـ
ـج عليها قلائد من جمان

هــرب النــوم عن جفــوني فيها،
هــرب الامن عن فــؤاد الجبــــان

ضحكة القبر

غير مجـــد في ملتـي واعتقــادي ،
نــوح بــاك ولا ترنـم ، شـــاد

وشبيه صوت النعـي ، اذا قيـــ
س ، بصـــوت البشير في كل نـاد

أبكــت تلكـم ، الحمـــامة ، أم غـ
نت عـــلى فرع غصنهـــا الميـــاد؟

صاح هـــذي قبورنا تملأ الرحـ
ــب ، فأين القبـــور من عهـد عاد؟

خفـف الوطء مـــا اظـن اديم الـ
أرض الا مـــن هـــذه الاجســـاد

وقبيـح بنا ، وان قـــدم العهــــ
ـد ، هــوان الابـــاء والاجـــداد

سر ، ان اسطعت ، فى الهواء رويدا
لا اختيالا على رفاة العباد

رب لحد ، قد صار لحدا مرارا ،
ضاحك من تزاحم الاضداد

ودفين على بقايا دفين ،
في طويل الازمان والآباد

تعب كلها الحياة ، فما اع
جب الا من راغب في ازدياد

ان حزنا ، في ساعة الموت ، اضعا
ف سرور فى ساعة الميلاد

خلق الناس للبقاء ، فضلت
امة يحسبونهم للنفاد

انما ينقلون من دار اعما
ل ، الى دار شقوة او رشاد

ضجعة الموت رقدة يستريح ال
جسم فيها ، والعيش مثل السهاد

بان امر الاله ، واختلف النا
س ، فداع الى ضلال وهاد

والذي حارت البرية فيه ،
حيوان مستحدث من جماد

واللبيب اللبيب من ليس يغـ
تر بكون مصيره للفساد

حنين المهاجر

متى سألت بغداد عني واهلها ،
فاني عن أهل العواصم سآل (١)

اذا جن ليلي جن لبي ، وزائد
خفوق فؤادي كلما خفق الآل (٢)

وماء بلادي كان انجع مشربا
ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال(٣)

فيا وطني ان فاتني بك سابق
من الدهر ، فلينعم لساكنك البال

فان استطع في الحشر آتك زائرا،
وهيهات لى يوم القيامة أشغال

فضل المشيب

خبريني ماذا كرهت من الشيـ
ـب فلا علم لى بذنب المشيب ؟

أضياء النهار أم وضح اللؤ
لؤ أم كونه كثغر الحبيب ؟

واذكري لي فضل الشباب وما يجـ
ـمع من منظر يروق ، وطيب

غدره بالخليل أم حبه للـ
ـغي أم أنه كدهر الاريب (٤)

الى الزوال

النفس تصرفت وانصرفت ، والاعضاء تألفت ثم تلفت ، والاقضية بحق هتفت : ما أعفيت المحلة لكن عفت ، كم شفيت (٥) المدنفة فما اشتفت :

نفس الفتى ، في دهره
تصرفت ، وانصرفت
تالفت اعضاؤه ،
وافترقت اذ تلفت
أقضية الله دعت ،
فاسمعت ، اذ هتفت :
ما أعفيت ديارهم
من الرزايا ، بل عفت
كم شفيت مريضة ،
من مرض ، فما اشتفت ٠

النحلة الغافلة

قد غدت النحل الى نورها ،
ويحك يا نحل لمن تكسبين ؟

يجيء مشتار بآلاته
فيسلب الاري ولا تلسبين[٦]

أتحسبين العمر علما به
لا بل تعيشين ولا تحسبين

هل لك بالآباء من خبرة ،
كم والد في زمن تنسبين ؟

أتحسبين الدهر ذا غفلة ،
هيات ما الامر كما تحسبين!

الأحوال المتشابهة

كأن منجِّم الاقوام أعمى ،
لديه الصحف يقرؤها بلمس

لقد طال العناء ، فكم يعاني
سطورا عاد كاتبها بطمس

دعا موسى فزال ، وقام عيسى
وجاء محمد بصلاة خمس

وقيل يجيء دين غير هذا،
وأودى الناس بين غد وامس

ومن لي أن يعود الدين غضا ،
فينقع من تنسك ، بعد خمس(٧)

ومهما كان في دنياك أمر،
فما تخليك من قمر وشمس

وآخرها بأولها شبيه ،
وتصبح في عجائبها وتمسي

قدوم اصاغر ورحيل شيب،
وهجرة منزل ، وحلول رمس

لحاها الله دارا ما تدارى
بمثل المين في لجج وقمس(٨)

اذا قلت المحال رفعت صوتى،
وان قلت اليقين أطلت همسي

لاذنب للدنيا

لاذنب للدنيا فكيف نلومها؟
واللوم يلحقني واهل نحاسي(٩)

عنب وخمر ، في الاناء ، وشارب،
فمن الملوم : أعاصر أم حاس ؟

جور الحكام

مل المقام فكم اعاشر أمة
امرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

ملوك صالحون

هل سار في الناس اول بتقى
فيتبع الناس بعده سيره ؟

ملوكنا الصالحون ، كلهم
زير نساء يهش للزيره

الواعظ المنافق

رويدك قد غررت ، وانت حر ،
بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصهباء صبحا ،
ويشربها ، على عمد ، مساء

تحساها ، فمن مزج وصرف
يعل كانما ورد الحساء[10]

يقول لكم : غدوت بلا كساء،
وفي لذاتها رهن الكساء

اذا فعل الفتى ما عنه ينهى ،
فمن جهتين ، لاجهة ، اساء

مالك دين

توهمت يا مغرور ، انــك ديــن ،
علي يميــن الله ، ما لــك ديــن

تســير الى البيت الحرام تنسكا
ويشــكوك جار بائس وخدين[11]

(١) العواصم : بلاد انطاكيه
(٢) الآل : السراب ·
(٣) الجريال : الخمر أو لونها الصافي ·
(٤) كدهر الاريب : أى أسود كزمن العاقل لانه أسود الحظ ·
(٥) شفيت : أى كم طلب لها الشفاء ·
(٦) المشتار : جاني العسل · تلسبين : تلدغين · الاري : العسل ·
(٧) ينقع : يروى من عطشه · خمس : ورود الماء في اليوم الاول ، ثم ظمأ ثلاثة ايام ، ثم وروده فى اليوم الخامس · قيل اراد بظمأ الايام الثلاثة الشرائع التى جاء بها موسى والمسيح ومحمد ·
(٨) المين : الكذب · القمس : الغوص فى الماء ·
(٩) النحاس : الطبيعة ومبلغ اصل الشيء
(١٠) يعل : يشرب مرة بعد مرة · الحساء : مياه لبني فزارة ·
(١١) الخدين : الصديق ·



صدر في هذه السلسلة

- الدمقراطية الاشتراكية

  احمد عبدالقادر

- المغنون البغداديون
  والمقام العراقي

  الشيخ جلال الحنفي

- المدخل الى علم الفولكلور

  عثمان الكعاك

- دارالسلام في حياة ابي العلاء

  الدكتورة عائشة عبدالرحمن
  ((بنت الشاطيء))

الاشراف الفني .. جميل حمودي

طبع بمطابع شركة دار الجمهورية للطباعة والنشر - بغداد

هذا الكتاب ..

« ....
اما « ابو العلاء » ، فليس في حياته خمر ولا ثار ، وانما الذى فيها رحلة الى بغداد ، كانت بصريح عبارته ، وباقوال مؤرخيه ، الحد الفاصل بين شطرين من حياته ، انسانا واديبا ، شطرين مختلفين ، شتان ما بينهما . ولقد سعى ابو العلاء الى بغداد سعي المشتاق ومكث فيها لا كما يمكث الناس ثم رحل عنها لا كما يرحل الناس .. وظل يحن الى بغداد ويكابد الشوق اليها ، ويحاول ان يئد ذلك الحنين وذلك الشوق دون ان يفلح .
فما الذى فعلته بغداد لابي العلاء ؟
واى سحر فيها استهواه وخلب لبه ؟

ان الدكتورة بنت الشاطىء ، وهى التى افنت السنين الطوال في دراسة ابى العلاء ، تثبت في بحثها هذا ان (بغداد) كانت الحد الفاصل بين شطرين من حياة ابى العلاء .. وانها بما قدمته وما صنعته له جعلته يدرك نفسه حق الادراك ..
و (بغداد) هى التى صهرت ابا العلاء
وليست الاحداث الجسام الاخرى .... »

الثمن
٥٠ فلسًا



